التقديم والتأخير بين مفرديتي "الضُرّ" و"النفع" في القرآن الكريم

د. جهاد محمّد فيصل النصيرات(*)

(*) أستاذ مساعد بقسم أصول الدين، كلية الشريعة – الجامعة الأردنية – المملكة الأردنية الهاشمية..

ملخص البحث:

التقديم والتأخير من أهم الموضوعات البلاغية التي تكشف لنا عن روعة الإعجاز القرآني؛ حيث جاءت هذه الدراسة لتكشف عن بعض الأغراض البيانية للتقديم والتأخير في مفردتين قرآنيتين لطالما اقترنتا معاً وتشاطرتا التقديم والتأخير في سياقاتهما المختلفة، وهما: (الضر) و(النفع).

فكان لا بد من الاستقراء التام لمواطن ورودهما في القرآن الكريم؛ للوقوف على الحكم البيانية لتباين الأدوار بينهما تقديماً وتأخيراً بعد دراسة متأنية لسياقاتهما ومقاصد السور التي جاءتا فيها. فقد تبين للباحث أن للتقديم والتأخير بين هاتين المفردتين أغراضاً بيانيةً ومقاصد قرآنية عميقة، ولم يأت هذا التقديم بينهما تلويناً للخطاب أو تنويعاً في الأسلوب.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين، وعلى من سار على نهجهم حتى يوم الدين، وبعد.

فإن موضوع (التقديم والتأخير) من أهم مباحث علم المعاني، حيث شغل العلماء – أقدمين ومحدثين – وتشاطرته الدراسات النحوية والبيانية على حدٍّ سواء، في محاولةٍ للوقوف على أسراره ومراميه.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن بعض الأسرار البيانية للتقديم والتأخير بين مفردتين كثر ارتباطهما معاً في القرآن الكريم، وهما: (الضر) و(النفع)، حيث إن هاتين المفردتين تلفتان النظر؛ لاختلاف مواقعهما – تقديماً وتأخيراً – في القرآن الكريم. فجاءت هذه الدراسة تحاول الكشف عن رافد هام من روافد الإعجاز البياني للقرآن الكريم من خلال البحث عن الأغراض المختلفة لهذا التقديم والتأخير، آخذةً على عاتقها استقراء هاتين المفردتين استقراءً تاماً في القرآن الكريم، لافتةً النظر إلى دور السياق العام والخاص، وإلى أهداف السور وموضوعاتها، وأثر ذلك كله في التقديم والتأخير، فجاءت هذه الدراسة في تمهيد ومبحثين وخاتمة.

* **التمهيد:** وفيه مطالب:

– المطلب الأول: أهمية التقديم والتأخير على ضوء السياق والمقاصد القرآنية.

– المطلب الثاني: مفردتا (الضر) و(النفع) وروداً ودلالةً.

* **المبحث الأول:** التقديم لمفردة (الضر) على مفردة (النفع) في القرآن الكريم.

* **المبحث الثاني:** التقديم لمفردة (النفع) على مفردة (الضر) في القرآن الكريم.

* **الخاتمة:** وفيها عرض لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

هذا، وإن القصور هو ديدن البشر وشأنهم، فما أصبت فيه فلله الحمد والمنة، وما جانبت فيه الصواب فسأصوبه إن شاء الله، شاكراً الله عز وجل في السراء والضراء.

التمهيد

المطلب الأول
أهمية التقديم والتأخير على ضوء السياق والمقاصد القرآنية

تحدث عن أهمية هذا الموضوع الكثير من العلماء – القدامى والمحدثين – ومن أولئك: صاحب (الكتاب) حيث يقول عنه: "وكأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم"[(١)].

وهذا التعليل لم يعجب الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي قال: "ولم يذكر سيبويه في ذلك مثالاً، وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدّم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، ولمَ كان أهم، ولتخيلهم ذلك صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه؛ حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف، ولم ترَ ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه"[(٢)].

وعرض صاحب (الصناعتين) للتقديم والتأخير فقال – وهو يتحدث عما ينبغي استعماله في تأليف الشعر – "وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيباً صحيحاً، فيقدم منها ما كان يحسن تقديمه، ويؤخر ما يحسن تأخيره، ولا يقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا يؤخر منها ما يكون التقديم به أليق"[(٣)]. وهذا الكلام موجز ومفيد، ولكن الأذواق تتباين فيما يعد حسناً تقديمه.

وحدثنا شيخ البلاغة العربية عن أهمية هذا الموضوع فقال: "هو باب

---

(١) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، الكتاب، علق عليه ووضع حواشيه: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص(١-٦٨).

(٢) الجرجاني، عبد القاهر (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م، ص(٨٤-٨٥).

(٣) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (٣٩٥هـ)، الصناعتين [الكتابة والشعر]، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٢، ص(١٥١).

كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"[٤].

وقد جعله الشيخ في نوعين أو وجهين:

"تقديم يقال: **إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل.**

وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعله باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه؛ وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ، ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا"[٥].

وتحدث عن هذا الموضوع أيضاً الإمام الرازي وجعله في أحد عشر فصلاً[٦].

وتناوله السكاكي – أيضاً – في أكثر من موضع في (مفتاحه)، فعرض له في مباحث الفن الثاني (المسند إليه) مبيناً أغراض تقديمه التي منها: الأهمية، والتشويق، والتفاؤل[٧].

وعرض لأغراض تقديم المسند وتأخيره في الفن الثالث، والتي منها: التخصيص، وأن يكون متضمناً للاستفهام[٨]. وعرض في فصل (متعلقات الفعل) في الفن الثالث، إلى اعتبارات التقديم والتأخير وأسهب فيها[٩].

---

(٤) دلائل الإعجاز، ص٨٣.

(٥) المصدر السابق، ص٨٣.

(٦) انظر: الرازي، فخر الدين (٦٠٦هـ)، نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز، تحقيق ودراسة: د. بكري الشيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص(٢٩٨-٣٢٠).

(٧) انظر: السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة وتاريخ، ص(٨٤-٨٥).

(٨) انظر: المصدر السابق، ص(٩٥).

(٩) انظر: المصدر السابق، ص(١٠٠-١٠٣).

وتحدث عن أهمية التقديم والتأخير الإمام الزركشي، حيث قال عنه: "هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالةً على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق"(١٠). وعندما تحدث الإمام السيوطي عن الوجه الحادي عشر من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو (تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع) عدّ السياق العامل الأول في سبب هذا التقديم والتأخير (١١).

ومن المحدثين يقول الدكتور لاشين: "والتقديم والتأخير لغرض بلاغي، ولسر من أسرار التعبير، يكسب الكلام جمالاً وتأثيراً، لأنه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين، كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده، فيكون الأسلوب صورةً صادقةً لإحساس المتكلم وصدق مشاعره"(١٢).

ويقول الدكتور المطعني: "التقديم –بعامة– سمة أسلوبية، لها عظيم الأثر في روعة الأسلوب وإبرازه في صورة حكيمة من الوفاء بالمعاني ومطابقتها لمقتضى الحال، سواءً أكانت هذه الحال ملاحظ فيها جانب المخاطبين أم جانب المخاطب، وهو من أقدر الفنون على كشف خبايا النفوس وسبر أغوراها، ويطوّع المعاني للاعتبارات المناسبة التي يراها البليغ حريةً بالكلام"(١٣).

---

(١٠) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن. تخريج وتعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ٢٠٠١م، (٣/ ٢٣٣).

(١١) انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١ هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ١٠ / ١٢٨)

(١٢) لاشين، د.عبد الفتاح، صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر، الرياض، طبعة عام ١٩٨٢م، ص (١٩٤).

(١٣) المطعني، د. عبد العظيم إبراهيم، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص (٢/ ٧٩).

وإذا كان الغرض الأساس من علم المعاني -كما يقول السكاكي - الاحتراز من الوقوع في الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره[١٤]. فإن تركيب الكلام تقديماً وتأخيراً، وحذفاً وذكراً، وتعريفاً وتنكيراً ...الخ، له دوره في مطابقة المقال لمقتضى الحال، فقد يقتضي الحال تقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم، خروجاً عن مقتضى الظاهر والمألوف ولكنه لا يخرج عن دائرة الكلام البليغ، الذي يقوم على المتكلم والمخاطب ومقام الخطاب.

ولأهمية هذا الموضوع -أيضاً- فقد تناوله أولئك الذين كتبوا عن المتشابه اللفظي في القرآن، أو عن مشكل القرآن، ذلك أن التقديم والتأخير في الكلمات أو الجمل في الآيات المتشابهة التي تتحدث عن موضوعات واحدة، يعد موهماً ومشكلاً؛ ولذلك لا بد من دفع هذا الإيهام من خلال ضم هذه الآيات المتماثلة في الموضوعات المختلفة تقديماً وتأخيراً مع مراعاة أهداف السور وموضوعاتها وسياقاتها التي جاءت فيها، وإن من شأن هذا أن يكشف لنا عن وجهٍ رائعٍ من وجوه إعجاز القرآن الكريم بدلاً من أن تكون هذه الفروقات بين الآيات مثلباً ينفذ من خلاله الطاعنون في قدسية القرآن. يقول د. فاضل السامرائي:

"إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال. وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن - كما في غيره - الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير، بحيث تستقر في مكانها المناسب... كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة"[١٥]

المطلب الثاني
مفردتا (الضر) و (النفع) وروداً ودلالةً

وردت كلمة (الضر) بصيغها واشتقاقاتها المختلفة (٧٤) مرةً في القرآن الكريم. يقول صاحب (اللسان): "الضَّرُّ والضُّرُّ لغتان: ضد النفع، والضَّرُّ

(١٤) انظر، مفتاح العلوم، ص٧.

(١٥) السامرائي، د. فاضل صالح، التعبير القرآني. دار عمار، عمان، ط٤، ٢٠٠٦ م، ص ٥٣.

المصدر، والضُّرُّ الاسم، فإذا جمعت بين الضَّر والنفع فتحت الضاد، وإذا أفردت الضُّر ضممت الضاد إذا لم تجعله مصدراً، كقولك: ضررت ضَرّاً. وقال أبو الدُّقيش: الضَّر ضد النفع، والضُّر بالضم الهزال وسوء الحال، فكل ما كان من سوء حالٍ وفقرٍ أو شدة في بدنٍ فهو ضُرٌّ، وما كان ضداً للنفع فهو ضَّر. والمضرة خلاف المنفعة، والضراء: نقيض السراء.

قال ابن الأثير: الضراء الحالة التي تضر، وهي نقيض السراء، وهما بناءان للمؤنث ولا مذكر لهما. والضراء: النقص في الأموال والأنفس، ومن معانيها أيضاً: الشدة. والضرير: المريض المهزول. والاضطرار: الاحتياج إلى الشيء. وقد اضطر إلى الشيء أي أُلجِئ إليه(١٦). وعلى هذا فمعاني (الضر) تدور كلها على سوء الحال والشدة والضيق. يقول الراغب: "الضُّرُّ سوء الحال، إما في نفسه لقلة العلم والفضل والعفةِ، وإما في بدنه لعدم جارحةٍ ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه"(١٧).

وعلى هذا فالضر قد يكون أمراً مادياً محسوساً، وقد يكون أمراً معنوياً لا يدرك بالحواس، وهذا ملحظ رائع من الراغب الأصفهاني.

وأما كلمة (النفع) فقد وردت بصيغها واشتقاقاتها المختلفة (٥٠) مرة في القرآن الكريم. يقول صاحب (معجم المقاييس في اللغة): "النون والفاء والعين كلمة تدل على خلاف الضر، ونَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفعاً ومنفعَةً، وانتفع بكذا"(١٨). وزاد على هذا صاحب اللسان: "المنفعة اسم ما انتفع به، واستنفعه: طلب نفعه، ورجل نفوع ونفّاع: كثير النفع، وقيل: ينفع الناس ولا يضر"(١٩). وعند الراغب:

---

(١٦) ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الإفريقي، لسان العرب. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، باب الراء فصل الضاد، ص(٩/٣٢-٣٣).

(١٧) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل (٤٠٣هـ)، معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م، ص(٢٢٠).

(١٨) ابن فارس، أحمد بن الحسين بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، معجم المقاييس في اللغة. تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، بدون طبعة وتاريخ، مجلد واحد، ص(١٠٤٢).

(١٩) اللسان، باب العين، فصل النون، ص (١٤/٣٢٥).

" النفع ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصل به إلى الخير فهو خير، فالنفع خيرٌ وضده الضر "[٢٠]. ويفهم من هذا أيضاً أن هذا النفع يشمل ما كان محسوساً، وما كان معقولاً كالعلم والفضل والعفة.

لقد اقترنت هاتان اللفظتان سواء أكانتا اسماً أم فعلاً في (١٧) موضعاً في القرآن الكريم في (١٣) سورة من سور القرآن الكريم: مكيّها ومدنيها على حد سواء[٢١].

قدم في تسعة مواضع منها لفظة (الضر) على (النفع)[٢٢]. وفي ثمانية لفظة (النفع) على (الضر)[٢٣]. مما يدعو إلى إنعام النظر في هذه المواضع ومحاولة تلمس الأغراض البيانية للتقديم والتأخير فيها.

---

(٢٠) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص(٣٨٠).

(٢١) هي: البقرة، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس، الرعد، طه، الأنبياء، الحج، الفرقان، الشعراء، سبأ، الفتح.

(٢٢) هي: (البقرة/١٠٢)، (المائدة/٧٦)، (يونس/١٨، ٤٩)، (طه/٨٩)، (الحج/١٢، ١٣)، (الفرقان/٣)، (الفتح/١١). فيها مكي ومدني.

(٢٣) هي: (الأنعام/٧١)، (الأعراف/١٨٨)، (يونس/١٠٦)، (الرعد/١٦)، (الأنبياء/٦٦)، (الفرقان/٥٥)، (الشعراء/٧٣)، (سبأ/٤٢).

المبحث الأول
التقديم لمفردة (الضُّر) على مفردة (النفع) في القرآن الكريم

المطلب الأول

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

تباينت آراء العلماء في نظرهم للوحدة الموضوعية في سورة البقرة، التي هي أطول سور القرآن الكريم. فهل كانت السورة متعددة الموضوعات أم ذات موضوع واحد وله محاور؟. يرى الإمام الشاطبي أن السورة متعددة الموضوعات، حيث يقول: "فسورة البقرة – مثلاً – كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بثّ فيها، منها: ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها: ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها: ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها: الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك"[٢٤]. على حين يرى رائد الوحدة الموضوعية في القرآن الإمام البقاعي أن للسورة موضوعاً

---

(٢٤) الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي (٧٩٠هـ)، الموافقات في أصول الشريعة. وعليه شروح وتخريجات للدكتور عبد الله دراز، دار الحديث، القاهرة، طبعة سنة ٢٠٠٦م، ص(٣/٢٨٨).

واحداً تدور عليه مقاطع السورة، فيقول: "مقصود هذه السورة: وصف الكتاب فقط، وما عدا ذلك فتوابع ولوازم، ولن يثبت أنه هدىً إلا بإثبات أنه حقٌّ معنىً ونظماً، ولما كان المعنى أهم قدم الاستدلال عليه، فأخبر عن تماديهم على الكفر بما يكون تكذيبهم به تصديقاً له، وأتبع ذلك بذكر المنافقين، إعلاماً بأن المنفي الإيمان بالقلب، وأنه لا عبرة باللسان إذا تجرد عنه ..."(٢٥).

أما الدكتور عبد الله دراز: فقد جعل السورة مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة، أما المقاصد فهي: دعوة الناس كافةً إلى اعتناق الإسلام، ودعوة أهل الكتاب خاصة، وعرض شرائع الدين مفصلةً، وذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع"(٢٦).

ويرى الأستاذ سيد أن: "للسورة عدة موضوعات، يجمعها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها ومواجهتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة ... ومن الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول انتشارها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض ... وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين"(٢٧).

وبعد هذه التوطئة عن موضوعات السورة العامة، أقول: لقد جاءت هذه الآية مدار البحث ضمن السياق الطويل في جدال أهل الكتاب ومحاجتهم في عقائدهم ومواقفهم ودعوتهم للدخول في دين الله عز وجل، حيث بدأ هذا السياق من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ

---

(٢٥) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. خرج أحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م، (٣٢/١).

(٢٦) انظر، دراز، د. محمد عبد الله، النبأ العظيم. دار القلم، الكويت، طبعة عام ١٩٨٤م، ص(١٦٣ وحتى آخر الكتاب).

(٢٧) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط١٠، ١٩٨٢م، ص(٢٨/١).

بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]، وفي ذات السياق يقول الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٩٩-١٠١]. فكان هذا التنديد والتوبيخ لبني إسرائيل على نقضهم العهود مع ربهم ومع أنبيائهم، وكل ذلك من فسوقهم وانحرافهم؛ فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لا لشيءٍ إلا اتباعاً للأساطير الواهية إزاء الحقائق الثابتة، فاتبعوا ما يقصه الشياطين على عهد سليمان وما يضلون به الناس من افتراءات على سليمان عليه السلام. والقرآن ينفي عن سليمان الكفر ويثبته للشياطين، وينفي القرآن - أيضاً - التهم الموجهة إلى الملكين ببابل: هاروت وماروت وما ألصق بهما من تعليم الناس السحر فتنةً لهم وردّةً عن الدين.

لكنَّ بعضاً منهم يبدو أنه كان مصراً على تعلم السحر لكي يوقع الضرر بالناس ويفرقون به بين المرء وزوجه، ثم يؤكد سبحانه بهذه الجملة المعترضة ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ويبين حقيقة فعلهم بأنهم ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾؛ حيث جاءت هذه الجملة وقد اقترن فيها لفظتا (الضر) و(النفع) بالفعل المضارع مقدماً فيه الضر على النفع، بما يتطلبه السياق ويقتضيه المقام.

فالله سبحانه وتعالى يقرر بجلاءٍ ووضوحٍ أنهم ما تعلموا السحر إلا لإيقاع الضرر، وأن هذا الضرر شأنه شأن كل ذرةٍ في الوجود لا تتحرك إلا بمشيئة الله ووفق إرادته، وإن لم يحبه الله ويرضاه.

فهذا الضرر الذي أرادوه بالناس جاء في نظم يفيد الحصر والقصر بطريقة الاستثناء بعد النفي قصر فيه سبحانه وتعالى ضرهم على مشيئته، ثم بيّن سبحانه وتعالى أن السحر انقلب على الساحر، وأن شرهم عاد عليهم، فقال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ فجاءت كل لفظةٍ بموضعها الذي لو

قدّمت أو أخّرت عنه لذهب الرونق ولفسد المعنى. يقول أبو حيان: "قوله (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) لما ذكر أنه يحصل به الضرر لمن يفرق بينهما ذكر – أيضاً – أن ضرره لا يقتصر على من يفعل به ذلك، بل هو أيضاً يضر من تعلمه، ولما كان إثبات الضرر بشيءٍ لا ينفي النفع، لأنه قد يوجد الشيء ويحصل به الضرر ويحصل به النفع، نفى النفع عنه بالكلية، وأتى بلفظ (لا) لأنه ينفي بها الحال والمستقبل"[٢٨]. ويقول ابن عاشور: "وقد أفادت الآية بجمعها بين إثبات الضرر ونفي النفع – الذي هو ضده – مفاد الحصر، كأنه قيل: ويتعلمون ما ليس إلا ضراً كقول السمؤال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي:

تسيل على حد الظُّبات نفوسنا ... وليس على غير الظُّبات تسيل

وعدل عن صيغة القصر لتلك النكتة المتقدمة وهي التنبيه على أنه ضر"[٢٩].

المطلب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة:٧٦]

هذه الآية من سورة المائدة التي تناولت موضوعات شتى وأحكام تشريعية كثيرة تهم المجتمع المسلم ويجمع هذه الموضوعات كما يرى – سيّد–: "إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين وبناء جديد"[٣٠]. وقد افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود، وختمت بالتذكير بيوم القيامة وشهادة الرسل على أممهم وشهادة عيسى عليه السلام على النصارى وتمجيد الله تعالى، وقد ذكرت فيها فرائض وأحكام لم تذكر في غيرها من السور.

---

(٢٨) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي (٧٥٤هـ)، البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ٢٠٠٥م، ص(١/٥٣٤).

(٢٩) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون طبعة وتاريخ، ص(١/٦٤٥-٦٤٦).

(٣٠) في ظلال القرآن، (٢/٨٢٥).

والآية مدار البحث جاءت في سياق خطاب الله تعالى لأهل الكتاب أن يقيموا التوارة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، حيث كشف السياق ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [المائدة: ٦٨]. الكثير من انحرافاتهم عبر تاريخهم الطويل، وبينت الآيات بكل صراحةٍ ووضوحٍ كفر من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم، أو قال: إن الله ثالث ثلاثة. ثم دعتهم الآيات إلى التوبة والاستغفار ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤]. ثم بينت الآيات حقيقة المسيح ابن مريم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [المائدة: ٧٥]. ثم جاء هذا الإنكار التوبيخي لهم بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾. وكذلك عبّر القرآن بـ(ما) بدلاً من (مَن) في قوله ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ علماً أن الاسم الموصول -كما يقول أبو السعود- يعود على المسيح عليه السلام وذلك "لتحقيق ما هو المراد من كونه بمعزلٍ من الألوهية رأساً، ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلاً، وهو عليه السلام وإن كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه، لكنه لا يملِكه من ذاته"[٣١].

وسواءً أكان الاسم الموصول يعود على عيسى عليه السلام أم على كل ما يعبد من دون الله، فإن الآية هنا قدمت الضر على النفع وذلك كما يرى أبو السعود -أيضاً- "لأن التحرز عنه أهمُّ من تحرّي النفع، ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر، ثم جلب الخير"[٣٢]. وإلى مثل هذا ذهب الألوسي[٣٣] وابن عاشور[٣٤].

---

(٣١) أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى (٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتايب الكريم. وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص(٢/٣٠٦).

(٣٢) المصدر السابق، ص(٢/٣٠٦).

(٣٣) انظر: الألوسي، شهاب الدين محمود (١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ١٩٩٤م، ص(٤/٣٠٦).

(٣٤) انظر: التحرير والتنوير، ص(٦/٢٨٩).

والذي يبدو – والله تعالى أعلم – على وجاهة هذا التعليل حيث إن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، أن هناك مسوغاً آخر لتقديم الضر في هذه الآية يتلاءم مع السياق الذي جاءت فيه الآية، فللسياق أهمية في تعليل التقديم والتأخير، وأستشهد في هذا بما قاله ابن دقيق العيد: "أما السياق والقرائن فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات، فاضبط هذه القاعدة فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى"[٣٥] وبما قاله الدكتور المثنى عبد الفتاح: "يأخذ السياق القرآني جانباً مهماً في بيان المعاني الواردة في النص القرآني، بل أحياناً يصعب فهم محمولات الألفاظ من غير تمعن السياق، سواء في ذلك سياق المقطع أم سياق السورة"[٣٦].

والسياق الذي جاءت فيه هذه الآية يتحدث عن أهل الكتاب في معرض التوبيخ والتعنيف لهم على معتقداتهم ومواقفهم المشينة فخاطبهم قائلاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٨]. وتحدث السياق بعد ذلك عن كفر بني إسرائيل وأعمالهم ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠] فلقد بلغ بهم الاستكبار مبلغه فكذبوا وقتلوا غير آبهين بعقوبة نازلة، فقال بعدها عنهم ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٧١]. ثم صرّح القرآن الحكم بتكفير من يقول

---

(٣٥) ابن دقيق العيد، محمد بن علي، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. تحقيق: علي بن محمد الهندي، القاهرة، طبعة عام ١٣٧٩هـ، ص(٣/٣٧٢).

(٣٦) د. المثنى عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية. دار وائل للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٨م، ص(١٦٤).

إن الله هو المسيح ابن مريم ثم قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]. وبعدها بآية ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣]. فبعد الأمر بعبادة الله تعالى بين لهم ضرر وعقوبة الشرك به، ثم أعقب ذلك بالتهديد لهم، ثم بالترغيب ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤]. فقدم الترهيب على الترغيب نظراً لتماديهم، ثم حدثهم عن حقيقة المسيح بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المائدة:٧٥]. فختم الآية بالتعجيب من حالهم إزاء هذه الحقائق الواضحة، ثم قال لهم منكراً وموبخاً: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٧٦]. فقدم الضر على النفع بما يتلاءم مع سياق الآيات في بيان عقوبة الله عز وجل لهم على تماديهم وطغيانهم حيث قدم السياق التهديد والوعيد على الترغيب والدعوة إلى الاستغفار في هذه الآيات؛ ولذلك جاءت كل من الكلمتين في موضعها الأمثل المتلائم مع مقطع وسياق هذه السورة التي هدفت إلى تنظيم جديد لهذا المجتمع المسلم في المدينة.

المطلب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

هذه الآية من سورة يونس المكية، التي جاءت تعالج قضايا العقيدة وتصحيح التصور، وهي ميزات تشترك بها مع مثيلاتها من السور المكية، إلا أنه يبقى لكل سورة في نهاية المطاف شخصية خاصة وميزات محددة. وقد ارتبطت مفردتا (الضر) و(النفع) في هذه السورة في ثلاث آيات، قدم في اثنتين منها الضر على النفع، وأخّر في الثالثة الضر عن النفع، كما سيأتي. وهذا يؤكد أن السياق والتناسب هو الذي يهيء تقديم لفظة على أخرى.

فقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن الكفار الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم عندما تلى عليهم آيات الله فيطلبون قرآناً غير هذا القرآن أو إجراء تبديل به، فيرد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه وحي الله الذي لا يستطيع النبي أن يبدله من تلقاء نفسه، فالقرآن كله مشيئة الله ووحيه في نزوله وفي تبليغه، وقد لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم عمراً من قبله [أربعين سنةً] ولم يقرأ عليهم شيئاً منه؛ لأنه لم يكن قد أوحي إليه بعد. وهل هناك من هو أشد ظلماً من أن يفتري الإنسان على الله ويكذب عليه. ثم جاءت هذه الآية بعد ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٥-١٨].

فالآية مدار البحث جاءت في معرض الحديث عما فعله أولئك المشركون وهم يدعون أن لهم شفعاء من دون الله، وهؤلاء الشفعاء لا يضرونهم ولا

ينفعونهم، فقدمت الآية الضر على النفع بصيغة الفعل المضارع الذي يدل على استحضار هذه الصورة البشعة لمعبود لا يضر ولا ينفع، مع أنه سبحانه وتعالى قد قدم في سورة الأنبياء النفع على الضر فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٦]. وقال في الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان:٥٥]. وذلك كما يقول ابن الزبير الغرناطي "تناسب الوارد من متصل قوله (ولا ينفعهم) بقوله بعدها (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)"(٣٧). أو كما يقول ابن عاشور: "لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها يخوفون عَبَدَتَها بأنها تُلحق بهم وبصبيانهم الضر، فأريد الابتداء بنفي الضر لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصَّادَّة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام"(٣٨).

والذي يبدو – والله تعالى أعلم وأحكم – أن سياق الآيات السابقة هو الذي سوّغ تقديم الضر على النفع، فقد تقدمها قوله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢]. فقدم الإيذاء على التبشير. وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٧-٩]. فقدم جزاء الكافرين على ثواب المؤمنين، وقال بعد ذلك: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ

(٣٧) ابن الزبير الغرناطي، أحمد بن إبراهيم (٧٠٨هـ)، ملاك التأويل، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص(١/٦١٢).

(٣٨) التحرير والتنوير، ص(١١/١٢٥).

أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[يونس:١١]. فقدم الشر على الخير، وقال بعدها: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢]. فقدم مسّ الضر على كشفه، ثم سبق هذه الآية مورد البحث قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:١٧]. ففيها تلويح بعذاب الله تعالى الذي يستحقه أولئك الكافرون، وأنه قادر سبحانه وتعالى على إيقاع الضرر بهم، ثم جاء قوله تعالى بعدها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس:١٨]. متسقاً تماماً ومنسجماً مع طبيعة الموضوعات التي عرضت في هذا المقطع من السورة.

المطلب الرابع

قوله تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس:٤٩].

وقد جاءت هذه الآية في سياق التحدي للشركاء المتخذين من دون الله على أن ينفعوا أو يضروا ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:٣٤-٣٦]. ثم جاء الحديث عن القرآن الكريم ونفي تهمة الافتراء، ثم تحديه لهم ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ

لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٣٧-٣٨]. ثم بين القرآن الكريم أن سبب تكذيبهم بالحق إنما هو جهلهم فيه ثم تعطيلهم لأدوات ومنافذ المعرفة من سمع وبصر ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:٣٩-٤٣]. ثم ينقلنا القرآن إلى مشهد يفضح حالهم يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس:٤٥]. ثم في الآية السابقة للآية مورد البحث حدثنا القرآن الكريم عن استعجالهم العذاب وإنكارهم له ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس:٤٨-٤٩].

وقد اكتفى الكرماني في تعليل تقديم لفظة (الضر) على (النفع) في هذا الموضع أن يقول: "لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه ثانياً"(٣٩). ومع تقديرنا لرأي هذا العالم الجليل إلا أننا لا نرى أن هذه القاعدة مضطردة، ففي آية أخرى من سورة الأعراف مشابهة لهذه الآية وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]. حيث قدم النفع على الضر. وسيأتي الحديث عن هذه الآية في المبحث الثاني من هذا البحث.

---

(٣٩) الكرماني، محمود بن حمزة (٥٠٥هـ)، البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، دراسة وتحقيق د. السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ١٩٩٤، ص (١٣٠).

وارتضى ابن الزبير الغرناطي أن يكون سبب تقديم الضر على النفع في آية يونس –مدار البحث– "للمتقدم قبله من قوله (ويقولون متى هذا الوعد) فطلبوا تعجيل العذاب استهانةً وتكذيباً، ولم يعلموا ما في طلبهم من المحنة والمضرة العاجلة، فقال لهم عليه السلام بأمر الله عز وجل: إني لا أملك الضر والنفع لنفسي ولا لكم، فلا تستعجلوني ذلك فليس بيدي، فقدم الضر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه"(٤٠). ويبدو أن الإستاذ سيد ارتضى ما ارتضاه الغرناطي لنفسه فعلّل تقديم الضر بقوله: "وقد قدم ذكر الضر هنا، وإن كان مأموراً أن يتحدث عن نفسه، لأنهم هم يستعجلون الضر، فمن باب التناسق قدم ذكر الضر، أما في موضع آخر في سورة الأعراف فقدم النفع في مثل هذا التعبير، لأنه الأنسب أن يطلبه لنفسه وهو يقول: (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء)"(٤١).

وأضيف هنا أن السياق السابق لهذا الآية سوّغ تقديم الضر على النفع فضلاً عما تفضل به العلماء من الحديث عن قضية استعجال العذاب، فالسياق السابق ألصق بشركائهم الضر وأسند النفع إلى الله تعالى، فشركاؤهم لم يخلقوا الخلق ولا يعيدونه، والله هو الذي يفعل ذلك، وشركاؤهم لا يهدون إلى الحق والله وحده يهدي إلى الحق، والمشركون لا يتبعون إلا الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، وهم الذين افتروا على القرآن، ووصفوه بأنه كذب واختلاق ومفترىً. والقرآن تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فما استطاعوا، وهم الذين كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، وهم الذين كذبوا وهم الذين عطلوا نوافذ المعرفة فكانوا صماً عمياً، وهم الذين ظلموا أنفسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤] وهم الذين خسروا كل شيءٍ في أخراهم، وهم الذين أنكروا العذاب واستعجلوه.

(٤٠) ملاك التأويل. ص(١/٥٧٨).
(٤١) الظلال: ص(٣/١٧٩٧).

وعلى هذا نجد أن سياق هذه الآية قد ذكر كثيراً من مظاهر إضرارهم بأنفسهم وبالمؤمنين، فكان ملائماً تماماً أن يأتي تقديم نفي الضر على نفي النفع على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في هذا السياق، والله أعلم.

المطلب الخامس:

قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩].

جاءت هذه الآية في السياق الطويل لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل في سورة طه، وذلك بعد أن أنجاه الله سبحانه وتعالى مع بني إسرائيل من فرعون وجنوده؛ فضرب لهم طريقاً يابساً في البحر، فقطعوه وغرق فرعون وجنوده، ثم أنزل الله عليهم المنّ والسلوى حتى يأكلوا منه ويشكروا ربهم، وعندما ذهب موسى عليه السلام إلى جانب الطور الأيمن حيث واعده ربه عاد بنو إسرائيل لما تربوا عليه من الجحود والنكران، فسقطوا في فتنة السامري وضلالاته، مع أن الله تعالى قد حذرهم من ذلك بقوله لهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه:٨٠-٨١].

وعندما عاد موسى عليه السلام إلى قومه ورآهم على ما هم عليه قال لهم مستنكراً: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾[طه:٨٦]. فقالوا: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٧-٨٩]. فقدم سبحانه وتعالى الضر على النفع في نفي كليهما عن ذلك العجل المعبود، ويمكن أن يقال في هذا الموضع

وما يشبهه من المواقع: إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فالنفوس معلقة بدفع الأضرار قبل جلب المنافع، لكن السياق - هنا - له أثر في هذا الترتيب، فبنو إسرائيل جبلت نفوسهم على جحود النعم من ناحية، وعلى الخوف من ناحية أخرى، ولقد عانى موسى عليه السلام منهم هذا الجبن والخور والخوف على ضياع المكاسب عندما تعذروا له عن دخول الأرض المقدسة قائلين: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]. وهنا سوّغوا عبادتهم لذلك العجل بقولهم ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٧]. فهم يخافون هذه الأوزار التي في رقابهم من زينة القوم التي أخذوها بغير حق.

وهكذا نجد في السياق السابق ما يسوّغ هذا الترتيب في نفي الضر الذي كانوا يخشونه من قول الله لهم ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه:٨١]. وقول نبيهم لهم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:٨٦]. ثم هذا الخوف في نفوسهم من وقوع الضر بهم لما حملوه من الأوزار بسبب زينة القوم، فجاء نفي ملك الضر والنفع عن هذا المعبود الطاغوت ملائماً للسياق، وقدم فيه نفي الضر على النفع؛ انسجاماً مع النظم ومع المعنى.

المطلبان السادس والسابع

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج:١٢-١٣].

وسورة الحج سورة مكية في موضوعاتها وأسلوبها إلا ما صحت الروايات فيه بأنه من الآي المدني كقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩]. التي نزلت يوم بدر. وموضوعات وقضايا سورة الحج هي

القضايا التي يعالجها القرآن المكي في الغالب، من مثل: "التوحيد، والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون بارزة في السورة، وإلى جانبها الموضوعات المدنية: من الإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه الغي، والأمر بالجهاد في سبيل الله"(٤٢).

وهذه السورة ذكرت من أصناف الناس الشيء الكثير حتى لتكاد تكون مسماة باسمهم، فقد وردت فيها مفردة "الناس" (١٥) مرة، وذكرت من أقسامهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾، وجاء النداء فيها للناس مرات عديدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾، وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾، ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

(٤٢) المصدر السابق. ص(٤/٢٤٠٦).

وهاتان الآيتان - موضع البحث - جاءتا بعد الحديث عن صنف من الناس يعبد الله على حرف ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾﴾. وقد جاء الحديث عن هذا الصنف من الناس بعد الحديث عن صنف من المشركين المجادلين في الله بغير علم، ولذلك قال أبو السعود عن هذه الفئة: "شروعٌ في بيانِ حالِ المُذبذبين إثرَ بيانِ حالِ المُجاهرين، أي ومنهُم: من يعبدُه سبحانه وتعالى على طَرَفٍ من الدِّين لا ثباتَ له فيه، كالَّذي ينحرفُ إلى طَرَفِ الجيشِ فإنْ أحسَّ بظَفَرٍ قَرَّ وإلا فَرَّ (فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ) دنيويٌّ من الصَّحَّةِ والسَّعةِ (اطمأن بِهِ)، أي: ثبتَ على ما كانَ عليهِ ظاهراً (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ) من مكروهٍ يعتريهِ في نفسِه أو أهلِه أو مالِه (انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والأخرة) بذهابِ عصمتِه، وحبوطِ عملِه بالارتدادِ"[٤٣]. ثم بين سبحانه وتعالى عظم هذا الخسران المبين بقوله: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾، فهو يعبد من الأصنام أو غيرها من الطواغيت ما لا يضره إن لم يعبده، وما لا ينفعه إن هو عبده. أي هو جماد لا يضر ولا ينفع. ثم جاءت الآية الأخرى بعدها لتبيين حال دعائه المذكور ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

وقد ذكر الزمخشري مسألة حول هذه الآية والتي سبقتها فقال: "فإن قلت: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض. قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم، وذلك أن الله تعالى سفّه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها (لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير) وكرّر يدعو، كأنه قال: يدعو من دون

(٤٣) إرشاد العقل السليم. ص(٤/ ٣٧١).

الله ما لا يضره وما لا ينفعه، ثم قال: لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى"[٤٤]. وزاد أبو السعود: "وإيثارُ (مَن) على (مَا) مع كون معبودِه جماداً وإيرادُ صيغة التَّفضيل (أقرب) مع خلوِّه عن النَّفع بالمرَّةِ للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعانِ في ذمِّه، أي يقول ذلك الكافرُ يوم القيامةِ بدعاء وصُراخٍ حين يرى تضرُّرَه بمعبوده ودخولَه النَّارَ بسببه ولا يرى منه أثرَ النَّفعِ أصلاً لمن ضرُّه أقربُ من نفعِه: والله لبئسَ النَّاصرُ هو، ولبئسَ الصَّاحبُ هو: فكيف بما هو ضررٌ محضٌ عارٍ عن النَّفعِ بالكلِّيةِ"[٤٥]. وبهذا يتضح سر تقديم لفظ الضر على النفع في الآيتين، ففي قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ جاءت متلائمةً مع حال هذا المذبذب الذي إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، فهو ثابت مستقر في الظاهر طالما كانت الدنيا منافعها بيده، ولكنه يثور وينقلب ويرتد إذا أصابته الضراء. ثم جاءت الآيتان بعدها تبينان حال خسرانه في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا كانت خسارته أن يعبد من دون الله ما لا يضره إذا لم يعبده، وما لا ينفعه إن عبده، وهذا هو الضلال البعيد، فبما أن الضر يقلب حياته رأساً على عقب فلماذا يعبد أصناماً لا تضر ولا تنفع.

ثم جاءت الآية الأخرى لتبين عظيم خسرانه في الآخرة، وذلك حين يرى ضرر وعاقبة ما فعله في الدنيا من سوء العاقبة في جهنم، فيقول ما قال مقدماً الضر على النفع باعتبار السبب والنتيجة، فالضرر في وقوعه في عذاب جهنم هو النتيجة الحتمية لما فعله في الدنيا.

وبذلك كانت الكلمتان في مكانهما متلائمتين مع الغرض الذي سيقتا من أجله.

---

(٤٤) الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ومعه: حواشي الانتصاف والكاف الشاف وشرح شواهد الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م، ص(٣/١٤٨).

(٤٥) إرشاد العقل السليم، ص(٤/٣٧٢).

المطلب الثامن

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

سورة الفرقان – التي وردت فيها هذه الآية – سورة مكية، ومحورها – كما يرى الأستاذ سيد قطب –: "إيناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية، وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدي، وصدهم عنه"(٤٦).

وتبدأ هذه السورة بتسبيح الله وحمده على تنزيل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وبتوحيد الله المالك لما في السموات والأرض، المدبر للكون بحكمة وتقدير دون أن يكون له شريك من ولدٍ وغيره، على حين نسب له المشركون آلهةً من دونه، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم دفع ضرٍّ أو جلب نفعٍ، فقدم الضر على النفع. ثم في سياق متقدم من هذه السورة يقول عن أولئك المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ فقدم النفع على الضر، وسيأتي الحديث عن هذه الآية الثانية في المبحث الثاني من هذه الدراسة.

أما عن تقديم نفي الضر على النفع في الآية الثالثة من سورة الفرقان فقد قال الإسكافي: "بنى على ما قبله، وهو (لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون). فقوله (لا يخلقون) نفي، (وهم يخلقون) إثبات، فقدم النفي على الإثبات، وكان الضر نفياً والنفع إثباتاً، أي النفع إثبات المصالح وإيجادها، والضر نفيها، فكما قدم

---

(٤٦) الظلال، ص(٥/ ٢٥٤٤).

فيما قبله ما نفى على ما أثبت، حمل المعطوف عليه ليكون مشاكلاً له"[٤٧].

وأضاف الكرماني وجهاً آخر لهذه المشاكلة، وهي موافقة قوله تعالى ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لما جاء بعدها وهو قوله ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ "فما قبله نفي وإثبات وما بعده موت وحياة"[٤٨].

ومن أصحاب كتب المتشابه ذهب ابن الزبير الغرناطي إلى ما ذهب إليه صاحباه (الإسكافي والكرماني) في مشاكلة قوله ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لما عطفت عليه وعطف عليها من قوله ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[٤٩]. ويرى أبو السعود أن السبب في تقديم الضر "لأن دفعَه مع كونه أهم في نفسه، أولُ مراتب النفع وأقدمها"[٥٠].

والحق – والله أعلم – أن دفع المضار وإن قدم على جلب المنافع، لكن تباين الأدوار في تقديم لفظة الضر أحياناً والنفع أحياناً أخرى يجعلنا نبحث عن سبب آخر أكثر انضباطاً وإقناعاً، ولا شك أن للسياق –كما تقدم– الأثر الأوضح والأضبط في هذا التباين، وأعتقد أن السياق – فعلاً – قدم السلب على الإيجاب، والنفي على الإثبات. فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان:٢-٣]. فنفى سبحانه الشريك والولد، ثم أثبت أنه الخالق لكل شيء، ونفى عن آلهتهم القدرة على الخلق، وأثبت أنها مخلوقة، ونفى عنها القدرة على الإماتة والإحياء

---

(٤٧) الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٤٢٠هـ)، درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص(١٨١).

(٤٨) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص(١٨٩).

(٤٩) انظر: ملاك التأويل، ص(٢/ ٧٠١-٧٠٢).

(٥٠) إرشاد العقل السليم، ص(٤/ ٤٩٣).

والنشر، فكان ملائماً تماماً تقديم لفظة الضر؛ لا سيما وأن الآيات استهلت ببعض ضررهم من نسبة ما لا يليق لله سبحانه وتعالى.

المطلب التاسع

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح:١١].

سورة الفتح التي جاءت فيها هذه الآية سورة مدنية، وهي كما يبدو نزلت عقب صلح الحديبية الذي جرت فيه الأحداث المعروفة، فنزلت بعدها هذه السورة مفتتحة بالبشرى للرسول صلى الله عليه وسلم بالفتح المبين، ومن ثم الامتنان على المؤمنين بالسكينة وتبشيرهم بالمغفرة والثواب. وتحدثت السورة عن مواقف من هذا الصلح كموقف المنافقين والأعراب، ومواقف المؤمنين وخلجات نفوسهم، وعن بيعة الرضوان. وتختم السورة بالثناء على النبي صلى الله عليه وسلم والفئة المؤمنة معه.

والآية مدار البحث جاءت في معرض الحديث عن الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويكشف القرآن ما دار في خواطرهم من سوء الظن بالله تعالى، وتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين الذاهبين إلى عقر دار قريش، ويكشف القرآن الكريم الأسباب الحقيقية لعدم الخروج معه ويفضحهم، فجاءت هذه الآية ترد عليهم بعد أن فضحتهم، وتقرر ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيتقدم فيها الضر على النفع بما هو متناسب مع السياق الذي جاءت فيه هذه الآية، فالأعراب ما فعلوا الذي فعلوه إلا لإيقاع الضرر بالمؤمنين، ولذلك تعذروا بالأعذار الكاذبة التي لا تتجاوز القول بالألسن دون اعتقاد القلوب، فقلوبهم ملئت وزينت بالظن السيء بالمؤمنين، وأنهم لن

يعودوا سالمين إلى المدينة، فكان الأليق بهذا المقام أن تتقدم لفظة الضر على النفع؛ لأنهم ما تخاذلوا عن الخروج إلا خوف الضرر، وما أرادوا بالمسلمين إلا الضر، وما كذبوا بأعذارهم إلا إرادة هذا الضر، فجاء الرد عليهم: من يملك أن يقدم لكم شيئاً من دون الله إن أراد بكم ضراً، فهل هناك من يصرف ضره، وإن أراد بكم نفعاً فهل هناك من يمنع نفعه.

المبحث الثاني
التقديم لمفردة (النفع) على مفردة (الضُّر) في القرآن الكريم

تقدمت مفردة (النفع) على مفردة (الضر) في المواضع الثمانية التالية من القرآن الكريم:

المطلب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١].

هذه الآية جاءت في سورة الأنعام المكية، التي أخذت على عاتقها معالجة موضوع العقيدة بكل مقوماتها ومكوناتها، وخاصةً عقيدة الألوهية في تفرده سبحانه وتعالى بالأمر والنهي والحاكمية المطلقة، حيث تتجلى هذه العقيدة في كل مقاطع السورة وأشواطها(٥١).

وقد جاءت هذه الآية في سياق تقرير المفاصلة في العقيدة بين المؤمنين وبين الكافرين، فقد كذب المشركون بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه الحق، فأمره تعالى بمفاصلتهم ومنابذتهم وأن يعرض عنهم، ولكن هذا لا يمنعه من دعوتهم وتبليغهم رغم هذه المفاصلة فقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا

(٥١) انظر: في ظلال القرآن، ص(٢/١٠١٧).

عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٦٦-٧٠]. ثم أمره سبحانه بهذه الصيغة (قل) التي كثر ورودها في القرآن الكريم في قضايا تحتاج إلى عناية النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعته ومباشرته لهذه التبليغات بالغة الأهمية. وجاء هذا الاستفهام الإنكاري التكذيبي ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ مستنكراً لهم دعوة وعبادة غير الله بناءً على ما كانوا يقترحونه على النبي صلى الله عليه وسلم والفئة المؤمنة معه، أو بناءً على لسان حالهم المؤذن برغبتهم في ردة المسلمين عن دينهم، ثم يصور القرآن لكريم هذا المشهد لهذا الارتداد على الأعقاب بصورةٍ تقشعر منها النفوس وتأباها، مشهد ذلك المتحير الذي أشرك بعد توحيده فتوزع قلبه وتشتت بين الإله الواحد والآلهة المتعددة فيذهب في التِّيه. يقول ابن عاشور: "هذا التركيب البديع صالح للتفكيك بأن يشبّه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بها، بأن يشبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون، ويشبّه الكفر بالهُيام في الأرض، ويشبّه المشركون الذين دعَوْهم إلى الارتداد بالشياطين وتُشَبّه دعوة الله الناس للإيمان ونزولُ الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى"(٥٢).

وقد تقدم في هذه الآية النفع على الضر بصيغة الفعل المضارع الدال على استحضار هذه الصورة البشعة أمام الناظرين، في دعوة تلك الآلهة المزعومة والهالات الكاذبة وهي لا تقدم نفعاً ولا ضراً. وقد بيّن الكرماني أن سبب تقديم النفع على الضر هنا هو "لسابقة لفظٍ تضمن نفعاً، فقد تقدمه قوله تعالى: (ليس

(٥٢) التحرير والتنوير، ص(٣٠٣/٧).
(٥٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص(٦٩).

لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها)"[٥٣]. وهذا ملحظ دقيق من الشيخ الكرماني ويدل على عمق الغوص، ولكني أظن أن سياق الآيات السابقة كلها تضمن ذكر هذا النفع، فالله تعالى بيّن في الآيات السابقة أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وأنه يتوفانا بالليل ويعلم ما جرحنا بالنهار، وهو الذي ينجينا في ظلمات البر والبحر، وهو القادر على أن يبعث علينا عذاباً من كل مكان، ثم بعد ذلك ينهى سبحانه وتعالى عن مجالسة أولئك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً اغتراراً بالحياة الدنيا، وأمره أن يذكرهم بأنهم سيحبسون بأعمالهم السيئة في جهنم وليس لهم من ولي ولا شفيع ولا فداء ينفعهم، ثم جاء قوله ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ متناسقاً ومتناغماً مع سياق وسباق الآيات.

المطلب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقد تقدم في سورة يونس قول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فتباينت اللفظتان (الضر) و(النفع) تقديماً وتأخيراً في موضعين متشابهين وعلى لسان النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن يكون ذلك لأجل التنويع في الأسلوب والتغيير في العرض، فهذه حجة من قنع لنفسه بالقليل وكفاها مؤونة البحث.

والحق أن كلتا السورتين مكية تشتركان في تناول قضايا العقيدة، إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها المتميزة، ومنهجها الخاص، وأسلوبها المحدد، فسورة الأعراف -كما يرى الاستاذ سيد- "تعالج موضوع العقيدة في مجال التاريخ البشري، مبتدئةً بالجنة والملأ الأعلى، وعائدةً إلى النقطة التي انطلقت منها، وتعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد عليه

الصلاة والسلام، وتعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل أو قبيلاً بعد قبيل، ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف حاربته؟ وكيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد؟ وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا والآخرة"(٥٤).

وسورة يونس – كما تقدم – تعالج موضوع العقيدة بطريقتها الخاصة، فهي تواجه ابتداءً موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي ومن هذا القرآن كله، وتواجه طلبهم واستعجالهم بالوعيد، وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته في الوجود من حولهم، وتعرفهم بحقيقة الدنيا وأنها للابتلاء، ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية، وما يترتب على تكذيبهم بالبعث والآخرة.

وقد جاءت آية الأعراف – مدار البحث – في سياق الحديث عن ذرء الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ لأنهم عطلوا أدوات المعرفة من قلوب لا تفقه، وأعين لا تبصر، وآذان لا تسمع، فمثلهم كالأنعام. ثم بيّن سبحانه وتعالى أن من سننه: الاستدراج والإملاء للمكذبين، ثم عاب عليهم ما اتهموا به النبي صلى الله عليه وسلم بأن به جِنّة، وما هو إلا نذير مبين، ثم ذكر سؤالهم عن الساعة، وأنها لا تأتي إلا بغتة، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم وقتها أيضاً. ثم أمره أن يقول لهم: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فقدم في هذا الموضع – دون موضع يونس – ذكر النفع على الضر؛ وذلك كما يرى الإسكافي "أن آية الأعراف جاءت بعد قوله ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾[الأعراف: ١٨٧]. وبعده ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٧]. فكان معنى قوله ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٧] لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب إلا ما ملكنيه الله تعالى، فلا أملك

---

(٥٤) الظلال، (٣/ ١٢٤٤).

إلا ما مُلّكت، ولا أعلم إلا ما عُلّمت، والذي تتساءلون عنه أخفى الغيوب، وأنا لا أعلم منها ما هو أقرب إلى رجم الظنون، ولو علمت الغيب لاستكثرت في السنة المخصبة ما يدفع كلب المجدبة، وقيل: لاستكثرت من العمل الصالح الذي أعتقد أنه أرفع عند الله درجةً ... وأما الآية التي في سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى، وقبلها ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾[يونس:٤٦]. فتقديم الضر على النفع في هذه الآية بخروجها على ذكر العذاب الذي قال الله تعالى فيه بعدها: (أثم إذا ما وقع آمنتم به...)"[٥٥]. وإلى مثل هذا ذهب ابن الزبير الغرناطي[٥٦].

وعلى هذا فإن سياق آيتي يونس والأعراف سوّغ تناوب حالات التقديم للفظتين في الموضعين، فسياق الأعراف سبق بالحديث عن مثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فقد قدم الله تعالى ذكر النفع على ما وقع من هذا الرجل من ضررفقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فهو ضر بعد نفع. وبعدها ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فترك النفع ووقع بالضر. وبعدها بآيات ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فتقدم النفع على الضر. وبعدها بآيات ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فهي أمر بالنفع وترك للضر. ثم بعدها بآيات الحديث عن الساعة وسؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم كأنه حفي عنها؛ فظنوا أنه يعرف وقتها، ولا شك أن العلم بالشيء نفع لصاحبه فأجابهم ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم بين لهم أنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير الذي هو النفع فقال: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ فقدم النفع على الضر.

---

(٥٥) انظر: درة التنزيل، (ص(١٠١).

(٥٦) انظر: ملاك التأويل، (١/٥٧٧-٥٧٨).

يقول أبو حيان: "وقدم – هنا – النفع على الضرّ؛ لأنه تقدم من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فقدّم الهداية على الضلال، وبعده لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء، فناسب تقديم النفع وقدم الضرّ في يونس على الأصل؛ لأن العبادة لله تكون خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه"(٥٧).

المطلب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦].

تقدم ذكر الموضعين في سورة يونس اللذَين قدم فيهما لفظ الضر على لفظ النفع لما اقتضاه السياق في كلا الموضعين، وفي هذه الآية جاء تقديم ذكر النفع على ذكر الضر، مما يدعو إلى التساؤل عن سبب هذا التقديم والتأخير في هذه السورة، وبعد هذه الآية مباشرةً جاء قوله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فقدم ذكر الضر على الخير تارةً أخرى.

وهذه الآيات جاءت في خاتمة السورة، وقد حوت الخاتمة موضوعات السورة موجزةً، ثم كُلِّفَ النبي صلى الله عليه وسلم بإعلانها للناس إعلاناً عاماً حاسماً في قوله ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يونس:١٠٤-١٠٥]. فتوحيد الربوبية والحاكمية ونفي الشركاء والشفعاء ورجوع الأمر كله لله جاء في خاتمة هذه السورة.

والحق أن هذا التقديم والتأخير ما بين اللفظتين استوقفني طويلاً في هذا الموضع بالذات، فقرأت السورة ملياً؛ محاولاً استنطاق الآيات للوقوف على

---

(٥٧) البحر المحيط، ص(٥/ ٢٤٠).

الغرض البياني لهذا التقديم والتأخير في الآيتين، فوجدت أن السياق السابق بدأ بالحديث عما جرى مع بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم، فبدأت الآيات بنوح عليه السلام الذي قال لقومه ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، حيث تحداهم وشركاءهم أن يقضوا إليه ولا ينتظروا، فما فعلوا، ولكن الله أغرقهم، ومنّ على نوح ومن معه بالنجاة في الفلك وبجعلهم خلائف في الأرض. وحدثنا السياق بعد ذلك عما جرى مع موسى عليه السلام وقومه، ثم كيف نجاهم الله سبحانه وتعالى برحمته من القوم الكافرين، وجعل بيوتهم قبلة، ثم جاءت دعوة موسى عليه السلام ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذي ابتلى فرعون وملأه بهذا الخير الكثير الذي ما أدوا شكره، ثم جاءت نعمه أخرى على بني إسرائيل وهي نعمة عبور البحر، ثم غرق فرعون ونعمة الله عليه﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

وبعد ذلك يحدثنا السياق عن قوم يونس عليه السلام ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وبعدها بآيات يأتي قوله تعالى في سنته مع المؤمنين: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم يأتي هذا المقطع الأخير ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبعدها تأتي الآيتان مدار البحث، حيث قدم في الأولى النفع على الضر بما ينسجم مع سنته سبحانه وتعالى في إكرامه للمؤمنين ونصرة دينه، فالنفع ظهر جلياً في الآيات السابقة من نجاة الأنبياء السابقين واستخلافهم في

الأرض وإعطائهم النعم الكثيرة، وكيف ينفع الإيمان الأقوام من الهلاك. ثم تأتي هذه الآية الأولى في النهي عن دعوة ما لا ينفع ولا يضر، فهل من أولئك الشركاء والشفعاء من ينفع أتباعه كما ينفع الله تعالى أولياءه وأنبياءه عبر تاريخ كفاحهم الطويل.

ثم يقول سبحانه بعدها مباشرةً ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فالآية الأولى نفت عن هذه المعبودات النفع والضر، وهذه الآية معطوفة على الآية السابقة، ولذلك إذا مسك الضر فلا كاشف له إلا هو ... فلما أسند النفع والضر إلى الله في هذه الآية قدم ذكر الضر على النفع؛ لأن من المعروف أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذا الأسلوب يكثر في القرآن في الحديث عن الضر والنفع، ففي هذه السورة جاء قوله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾، وفي الأنعام ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي النحل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾، وفي الإسراء ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، وفي الروم ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، وفي الزمر ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، وقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقوله ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهكذا.

المطلب الرابع

قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ الرعد: ١٦، هذه الآية في سورة الرعد التي موضوعاتها هي ذات الموضوعات في السور المكية، وتتميز هذه السورة بإيقاعاتها وصورها الفنية المميزة، فهي تعرض آيات الله في الآفاق، في السماوات المرفوعة بغير عمد، وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، وفي الليل يغشاه النهار، وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواسٍ ثابتة وأنهار جارية، وجنات وزروع ونخيل مختلف الأشكال، والطعوم والألوان، وفي البرق يخيف ويطمع، والرعد يسبح ويحمد، والملائكة تخاف وتخشع، والصواعق يصيب بها من يشاء..."[٥٨].

لقد جاءت هذه الآية موضع الدراسة في خضم سياق هذه الآيات الكونية وبعد سجود كل المخلوقات لله تعالى في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وتعيب على المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فقدمت ذكر النفع على الضر في هذا الموضع من سورة الرعد بينما رأينا العكس في التقديم في سورة الفرقان، واكتفى الخطيب الإسكافي في تعليل تقديم النفع في الرعد بقوله: "فإنه قدم فيه الأفضل على الأنقص لأن اجتلاب النفع أفضل من استدفاع الضر، وهو رتبة فوقه، فمن فاته كمال ذلك طلب دفع الضرر فهو على وجهه في الترتيب"[٥٩]. ولا أظن هذا التعليل يزيل إشكالاً، فمن أين كانت هذه الأفضلية هنا؟ ولم لم يأخذ القرآن بالأفضل في كل المواضع التي اقترنت بها هاتان المفردتان؟

وأظن –والله أعلم– أن سورة الرعد هي سورة المنافع. فالسياق والسباق اللذان جاءت فيهما الآية مداره على نعم الله عز وجل في الآفاق والأنفس، ومما

---

(٥٨) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ص(٤/٢٠٣٨-٢٠٤٠).
(٥٩) درة التنزيل، ص(١٨١).

يؤكد هذا ما جاء قبلها بآيات من قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وقوله ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾، وبعد الآية مدار البحث بآيات ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، وقوله ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ﴾ وبعدها ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهكذا نجد أن السياق كان في تقديم الأنفع على الضار، والله تعالى أعلم وأحكم.

المطلب الخامس

قوله تعالى في سورة الأنبياء على لسان أبي الأنبياء: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[الأنبياء:٦٦].

هذه الآية من سورة الأنبياء المكية التي جاءت تعالج موضوع العقيدة في ميادين: التوحيد والرسالة والبعث، من خلال عرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها، فالعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى، فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان، فتأتي هذه السورة لتستعرض أمة الرسل الواحدة، في سلسلة طويلة استعراضاً سريعاً يطول عند بعض المحطات في تاريخ الرسل ويقصر عند بعضها الآخر. وتعرض السورة بعض مشاهد القيامة لاستجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في العقيدة التي جاء بها خاتم الرسل عليه السلام فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين عنها(٦٠).

وهذه الآية جاءت في معرض قصة إبراهيم مع قومه، حيث يبدأ السياق من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ ثم تحدثت الآيات عن موقفه عليه السلام مع تماثيل قومه ودعوته لهم للإيمان بالله عز وجل

(٦٠) انظر: سيد قطب، الظلال، ص(٤/ ٢٣٦٥).

الذي خلقهم، ثم توعده لهذه الأصنام ثم تحطيمه لها، وعندما قالوا له ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أجابهم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ فأدركوا الأمر ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ ثم قال موبخاً لهم ومنكراً عليهم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:٦٦-٦٧]. وقدم إبراهيم عليه السلام نفي النفع على نفي الضر عن هذه الأصنام. وهي موافقة لما جاء في آية سورة الفرقان ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ وسيأتي الحديث عنها لاحقاً. ولكنهما مخالفين لآية يونس ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وقد تقدم الحديث عنها.

والذي يبدو -والله تعالى أعلم- أن سياق آيات سورة الأنبياء قد هيأ لتقديم لفظة النفع على الضر، ذلكم أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان قد سألهم عن هذه التماثيل ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ ولا ريب أن العكوف عليها إنما هو رجاء المنفعة، ومن ثم درء المفسدة إذ إن العكوف يعني الملازمة وانتظار الخير. ثم إن إبراهيم عليه السلام قال لهم ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فالرب الذي يدعوهم إليه خلقهم وخلق أصنامهم، وهو الذي يرعاهم ويتعاهدهم ويحفظهم، كل هذا يأتي من لفظة (الرب).

على حين أصنامهم لا تفعل هذا، فهي لا تنفع ولا تضر؛ ولذلك توعدها عليه السلام بالكيد، ثم إن في ترك إبراهيم عليه السلام كبير الأصنام: ما يؤكد دلالة ما أراد من أن هذه الأصنام لا تنفع، فلو كانت تنفع لنفعت بعضها، ولشهدت على الفاعل. ولكنها لم تفعل، فهي إذن لا تنفع نفسها ولا تضر غيرها.

المطلب السادس

قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ الفرقان: هذه الآية من سورة الفرقان –وقد تقدم الحديث عن هذه السورة في المطلب الأول– جاءت في سياق مطول من ذكر النعم التي منّ الله تعالى بها على الناس. ولذلك اكتفى الكرماني في تسويغ تقديم لفظة (النفع) على (الضر) في هذا الموضع بقوله: "وفي الفرقان تقدم قوله (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) وعدّ نعماً جمةً في الآيات، ثم قال (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) فتأمل فإنه برهان القرآن"[٦١]. والحق أنني كنت قد بدأت بالتأمل قبل أن أقف على رأيه فظننت أنني وقعت على شيء لم ينتبه له أحد من العلماء السابقين وأنني قد جئت بما لم يأت به الأوائل، لكنني وقعت على رأيه بعد ذلك فأبت الحقيقة العلمية إلا أن تثبت للرجل ما قال. فلقد بدأ هذا السياق في تعداد النعم من قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ثم جاء الحديث عن جعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً، وعن بشرى الرياح وماء السماء الطهور الذي يحيي البلاد الميتة، وكذلك مرج البحرين، حيث جعل بين الماء العذب الفرات وبين الماء الملح الأجاج برزخاً وحجراً محجوراً، ثم هو الذي جعل من الماء كل شيءٍ حي، فجعل منه بشراً نسباً وصهراً، ثم جاء قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ ثم يستمر سياق النعم حتى نهاية السورة.

وهكذا نجد أن هذا الكمّ الهائل من المنافع التي ذكرتها السورة هو المسوغ لأن يعيب عليهم القرآن اتخاذهم آلهة من دون الله لا تنفع ولا تضر، فكانت الكلمات في موقعها اللائق التام الذي يدل على (برهان القرآن) كما ذكر الكرماني.

---

(٦١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص(٧٠).

المطلب السابع

قوله تعالى في سورة الشعراء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٣].

جاءت هذه الآية التي قدم فيها النفع على الضر في سياق حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في هذه السورة المكية التي عرضت لمسيرة كوكبة من الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم. حيث كان للقصص القرآني في هذه السورة الحظ الأوفر والأظهر في تقرير عقيدة التوحيد، والتسلية والتسرية عن قلب الحبيب صلى الله عليه وسلم في مواجهة المشركين المكذبين، وتثبيت للفئة المؤمنةعلى الحق.

وهذه الآية في هذا الموضع وعلى لسان إبراهيم عليه السلام تقدمت فيها لفظة النفع على لفظة الضر. وهي موافقة لما جاء في سورة الأنبياء، حيث قال نبي الله لقومه: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ وما قيل هناك يمكن أن يقال هنا. فقد عاب نبي الله عليهم عكوفهم على هذه الأصنام، وعكوفهم عليها يعني اعتقاد نفعها وضرها، فقال لهم متنكراً مكذباً ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ يريد بذلك أن يؤكد لهم أن هذه الآلهة لا تسمع ولا تستجيب، وبالتالي فهي عاجزة عن تقديم النفع. ثم أردف قائلاً ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فقدم النفع لملاءمة ما قبله ثم ملاءمته مع ما يأتي بعده، حيث قال نبي الله لهم بعدها ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٧٧-٨٢] ثم قال لهم بعد ذلك ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فالنفع لا يرتجى إلا من الله، وإذا كان الغرض الأساس من عبادتكم لها الحصول على النفع فهذا لن يكون. ثم إنه قدم جزاء المحسنين بالجنة على جزاء الغاوين بالجحيم على اعتبار تقديم ذكر المنفعة على المضرة. وبذلك يظهر تماماً أن لتقديم لفظة النفع على الضر ما يناسبها في سياق وسباق الآيات التي جاءت فيها.

المطلب الثامن

قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ:٤٢].

جاءت هذه الآية في مشهد من مشاهد هذه السورة الكثيرة تتعلق بصور العذاب يوم القيامة، حيث تتوزع مشاهد العذاب في مواضع كثيرة من هذه السورة المكية التي جاءت تقرر العقيدة، شأنها في ذلك شأن أخواتها من السور المكية مع اختصاصها أكثر بموضوع البعث والجزاء وإحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه(٦٢).

وقد بدأ هذا المشهد الذي جاءت فيه الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فهاهم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ويستشفعون بهم ويرجون نفعهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، ويعلنون استسلامهم وولاءهم لله وحده، فهؤلاء - فعلاً - كانوا يعبدون شياطين الجن كما كان يفعل الكثير من العرب، وكانوا يستعينون بأولئك الجن على قضاء منافعهم وتدبير شؤونهم، وبالتالي فهم في ذلك الموقف

(٦٢) للمزيد حول أغراض السورة ومحورها وموضوعاتها، انظر: الظلال، ص(٥/٢٨٨٨-٢٨٩٠).

العظيم لا يملك المعبودون من دون الله نفعا يقدمونه للعابدين، فلا الملائكة ولا شياطين الجن ينفعونهم أو يضرونهم، وجزاؤهم النار بما كانوا يكذبون بها.

ولا شك أن أدنى تأمل في سياق الآيات السابقة يزيد الأمر وضوحاً، فقد تقدم في ذات السورة قصة سبأ التي قال الله فيها ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[سبأ:١٥-١٧]. فقدم ذكر منافعهم على ما أصابهم. ثم قال بعد ذلك ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ وبعدها ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وبعدها بآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقدم البشرى على الإنذار. وفي ذات السياق ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقدم بسط الرزق على تضييقه وقدم جزاء المحسنين على المعاجزين، ثم عاد فقرر ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وهكذا نجد أن سياقات هذه السورة وسباقاتها قد هيأت وسوغت هذا التقديم لهذه المفردة على أختها، والله تعالى أعلم وأحكم.

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- ارتبطت لفظتا (الضر) و(النفع) في سبعة عشر موضعاً من كتاب الله تعالى، تقدمت فيه لفظة الضر على لفظة النفع في تسعة مواضع من كتاب الله، جاء التقديم فيها لفعل الضر على فعل النفع في ثلاثة مواضع (البقرة/١٠٢، ويونس/١٨، والحج/١٢). ولاسم الضر على اسم النفع في ستة مواضع (المائدة/٧٦، ويونس/٤٩، وطه/٨٩، والحج/١٣، والفرقان/٣، والفتح/١١). وتقدمت لفظة النفع على لفظة الضر في ثمانية مواضع، تقدم فيها فعل النفع على فعل الضر في خمسة مواضع (الأنعام/٧١، يونس/١٠٦، الأنبياء/٦٦، الفرقان/٥٥، الشعراء/٧٣) واسم النفع على اسم الضر في ثلاثة مواضع (الأعراف/١٨٨، الرعد/١٦، سبأ/٤٢). وهذا يعني أن اللفظتين تبادلتا أدوارهما في كتاب الله تبادلاً متكاملاً.
- تبادلت اللفظتان مواضع التقديم والتأخير بينهما حتى في السورة الواحدة، فقد قدم الضر على النفع في سورة يونس في الآيات (١٨، ٤٩)، وقدم النفع على الضر في الآية (١٠٦)، وكذلك الحال في سورة الفرقان، حيث قدم الضر على النفع في الآية (٣) وقدم النفع على الضر في الآية (٥٥).
- أثبتت هذه الدراسة أن هذا التبادل التكاملي في تقديم كل لفظةٍ على أخرى له أغراضه البيانية المتصلة بسياق الآيات وموضوعات السور التي جاءتا فيها سواء أكان ذلك من حيث اللفظ أم من حيث المعنى، فكل لفظة جاءت في الوضع الأليَق الذي لو بدلت عنه لذهب الرونق وفسد المعنى، وإن سياق وسباق الآيات هو الذي يسوغ هذا التقديم لإحدى المفردتين على أختها.

هذا، ولله الحمد من قبل ومن بعد

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. محمد بن علي بن دقيق العلي. تحقيق: علي بن محمد الهندي، القاهرة، طبعة عام ١٣٧٩هـ.

٣ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتايب الكريم. محمد بن محمد بن مصطفى أبو السعود العمادي (٩٨٢هـ)، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٤ – البحر المحيط. محمد بن يوسف الغرناطي أبو حيان الأندلسي (٧٥٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ٢٠٠٥م.

٥ – البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، تخريج وتعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ٢٠٠١م.

٦ – البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان. محمود بن حمزة الكرماني (٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق د. السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة،١٩٩٤م.

٧ – التحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون طبعة وتاريخ.

٨ – التعبيرالقرآني. د. فاضل صالح السامرائي، دار عمان، عمان، ط٤، ٢٠٠٦م.

٩ – خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.

١٠– درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله

العزيز. أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي(٤٢٠هـ)،برواية ابن أبي الفرج الأردستاني. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

١١- دلائل الإعجاز. عبد القاهرالجرجاني (٤٧١هـ)، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م.

١٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين محمود الألوسي (١٢٧٠هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، طبعة عام ١٩٩٤م.

١٣- صفاء الكلمة. د.عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، طبعة عام ١٩٨٢م.

١٤- الصناعتين [الكتابة والشعر]. أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٢.

١٥- في ظلال القرآن. سيد قطب، دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط١٠، ١٩٨٢م.

١٦- الكتاب. عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (١٨٠هـ)، علق عليه ووضع حواشيه: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

١٧- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ومعه: حواشي الانتصاف والكاف الشاف وشرح شواهد الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، الكشاف دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.

١٨- لسان العرب. جمال الدين بن مكرم الإفريقي ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

١٩- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، ضبطه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٢٠- معجم المقاييس في اللغة. أحمد بن الحسين بن فارس بن زكريا ابن فارس(٣٩٥هـ)، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، بدون طبعة وتاريخ، مجلد واحد.

٢١- معجم مفردات ألفاظ القرآن. الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (٤٠٣هـ)، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٢- مفتاح العلوم. أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي(٦٢٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة وتاريخ.

٢٣- ملاك التأويل. أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ)، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٢٤- الموافقات في أصول الشريعة. أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي(٧٩٠هـ)، وعليه شروح وتخريجات للدكتور عبد الله دراز، دار الحديث، القاهرة، طبعة سنة ٢٠٠٦م.

٢٥- النبأ العظيم. د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، طبعة عام ١٩٨٤م.

٢٦- نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية. د. المثنى عبد الفتاح، دار وائل للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي(٨٨٥هـ)، خرج أحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.

٢٨- نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز. فخر الدين الرازي(٦٠٦هـ)، تحقيق ودراسة: دبكري الشيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.